

محمود محمد شاكر

أَبَا طَيْلٍ وَأَسْمَارُ

الجزءان، الأول والثاني

هَلْ صَحَّ قَوْلٌ مِنْ حَاكِ فَقُبْلَهُ،
أَمْ كُلُّ ذَاكَ أَبَا طَيْلٍ وَأَسْمَارُ؟
أَنَا الْعُقُولُ قَالَتْ أَنَّهُ كَذِبٌ،
وَالْعُقُلُ غَرَسَتْهُ بِالْإِصْدَاقِ إِثْمَارُ
"شَجَرُ الْيَعْرَبَةِ"

الناشر

مكتبة الخانجي بالقاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَمْ يَخْزِ صَاحِبُهُ وَلَا وَلَدُهُ ، تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ
عُلُوُّ أَكْبَرِهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَعَلَى سَائِرِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

رسالة الكتاب

وَيَقُولُ دَارِي ، مَنْ يَقُولُ ، وَأَعْبِدِي ! مَهْ ، فَالْعَبِيدُ لِرَبِّنَا وَالِدَارُ ! (*)
يَا إِنْسَ ، كَمْ يَرِدُ الْحَيَاةَ مَعَايِشُ ، وَيَكُونُ مِنْ تَلَفٍ لَهُمْ إِصْدَارُ !
أَتُرَوُّمُ مِنْ زَمَنِ وَفَاءٍ مُرَضِيًّا ؟ إِنَّ الزَّمَانَ ، كَأَهْلِهِ ، غَدَارُ !
تَقْفُونُ ، وَالْفَلَكَ الْمُسَخَّرُ دَائِرُ ! وَتُقَدَّرُونَ ، فَتَضْحَكُ الْأَقْدَارُ !
« شيخ المعرة »

حين شرعتُ في كتابة هذه الفصول (سنة ١٣٨٤ هـ ، سنة ١٩٦٤ م) ، كنتُ قد قدَّرتُ لها مقاديرَ ، ونَهَجْتُ لها نَهْجًا مُسْتَيِّبًا ، ظننتُ أنَّي ، بعونِ الله ، قادرٌ على أن أمشي فيه وفي دروبه أتهادي ، لا يَدْعُرُنِي شَيْءٌ حَتَّى أبلُغَ نهايته . ولكن شاء الله غيرَ ما شئتُ ، وقَدَّرَ غيرَ ما قدَّرتُ ، وخابت ظُنُونِي ، واختُطِفْتُ عن السَّيْرِ في أوائله ، فدَعُ عَنكَ بُلُوغَ نهايته

ثمَّ كان ما كَانَ

ولهذه الفصولِ غرضٌ واحدٌ ، وإن تشعَّبت إليه الطُّرُق . وهذا الغرضُ هو ما قلتُ للأخ الصديق الأستاذ « محمد عودة » [ص : ٣٩٨] : « هو الدفاعُ عن أُمَّةٍ برُمَّتْها ، هي أمتي العربيَّة الإسلاميَّة . وجعلتُ طريقي أن أهتِكَ الأستارَ المُشدَّلَةَ التي عَمِلَ من ورائها رجالٌ فيما خَلَا من الزَّمان ، ورجالٌ آخرون قد ورثوهم في زماننا . وهمُّهم جميعًا كان : أن يحقِّقوا للثقافة العربيَّة الوثنيَّة كُلَّ الغَلَبَةِ على عقولنا ، وعلى مجتمعنا ، وعلى حياتنا ، وعلى ثقافتنا ، وبهذه الغَلَبَةِ يتمُّ انهيارُ الكيانِ العظيم الذي بناه أبائنا في قرون متطاوِلة ، وصَحَّحُوا به فسادَ الحياةِ البشريَّة في نواحيها الإنسانيَّة ، والأدبيَّة ، والأخلاقيَّة ، والعملِيَّة ، والعلميَّة ، والفكريَّة ، وردُّوها إلى طريق مُستقيم . علم ذلك مَنْ عِلِمَهُ ، وجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ . »

وكان ممَّا قدَّرَ اللهُ أن أفتحَ عينيَّ على ثورة مصر سنة ١٩١٩ ، وعلى دارِ تموج

(*) « مه » ، استنكار ، وزجر ، وأمر بالسكوت = « يا إنس » ، ترخيم « يا إنسان » .

بالتَّوَّار ، فعقلت من الأمر يومئذٍ ما عَقَلْتُ ، ورأيتُ بعينى رجالاً ، وسمعت بأذنى آراءً ، ورضيت بقلبي أو سَخِطْتُ ، وأعانتنى فِطْرَتِي بِضَرْبٍ من التَّمْيِيز ، كان يُرْجى نفسى رجًا شديدًا ، وأنا بعدُ فى غَضَارَةِ الصُّبَا . ولم أَكْذُ حتى انطلقتُ أجوبُ مجتمعًا يُفَوِّرُ بالمتناقضات ، ويتشَقَّقُ بالصراع المُرّ فى ميادين مختلفة : من الدين ، إلى العلم ، إلى الأدب ، إلى الفنِّ ، إلى السياسة ، إلى السُّننِ الموروثة = فحُضْتُ مِخْنَةَ زَمَانِي ، فى أوَّلِ نَشَأَتِي ، بنفسِ غَضَّةٍ مُجَرَّحَةٍ بالتجاربِ . ومضت بى الأيَّامُ ، وأنْخَنَتْنِي التجاربُ ، وهلك رجالٌ ، ونشأتُ رجالٌ ، فرأيتُ وسمعت ، ورَضِيتُ وسَخِطْتُ ، وعلمتُ من أسرار الصُّراع ما لم أَكُنْ أعلمُ .

فصارَ حَقًّا عَلَى واجِبًا أَنْ لا أَتَلَجَّلَجَ ، أو أُحْجِمَ ، أو أَجْمِجِمَ ، أو أُدَارِي ، مادمتُ قد نَصَبْتُ نفسى للدِّفاعِ عن أُمَّتِي ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا = وصارَ حَقًّا عَلَى واجِبًا أَنْ أَسْتَخْلَصَ تجاربَ خمسين سنة من عُمرِي ، فَصَّيْتُهَا قَلْقًا حائرًا ، أَصَارُغُ فى نفسى آثارَ عدوِّ خَفِيٍّ شديد النكاية ، لم يَلْفُشْنِي عن هَوْلِ صراعه شَيْءٌ ، منذ استحكمت قُوَّتِي ، واستنارت بَصِيرَتِي ، ومنذ استطعتُ أَنْ أَهْتِكَ السُّنَنَ عن هذا العدوِّ الماكر الخبيث = ثم صارَ حَقًّا عَلَى واجِبًا أَنْ لا أَعْرِجَ على بُنْيَاتِ الطريقِ ، إلا بعد أَنْ أَجْعَلَ الطريقَ الأعْظَمَ الذى تَشَعَّبَتْ منه ، واضِحًا لِأَجِبًا مُسْتَبِينًا = ثم صارَ حَقًّا عَلَى واجِبًا أَنْ لا أَلُوَّ جُهْدًا فى الكَشْفِ عن حقيقة هذا العدوِّ ، وعن حقيقة الصراع الذى عَانِيَتْهُ وَخَدِي عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ ، والذى عَانِيَتْهُ مَعَ أُمَّتِي الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى وَجْهِهِ أُخَرُ .

* * *

وقد سِرْتُ فى هذه الفصول المتشعبة المعانى سِيرَةً واحدةً ، فَضَمَّنْتُ جميعَهَا بَابًا أو أَبْوَابًا مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَقِيقَةِ الصُّراعِ الذى دارَ ، ولم يزل يدورُ على أرضنا ، وفى عقولنا ، وفى ضميرِ أَنْفُسِنَا . وأشرْتُ فى مواضع كثيرة إلى أَنَّ هذا الصراعَ صراعٌ بين حضارتين مختلفتين فى جُذُورِهِمَا أَشَدَّ اخْتِلَافٍ : حضارة طَالَتْ عَلَيْهَا الزَّمَنُ فَغَفَتْ عَفْوَةً آمِنَ مُسْتَرِيحٍ لا يَفِرُّعُهُ شَيْءٌ = وحضارة وَاثَاها الزَّمَنُ فَهَبَّتْ يَقْظَةً مُتَلَفِّتَةً جَرِيئةً ، لا تَأْمَنُ أَحَدًا وَلا تَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا بَدَرْتُ بَوَادِرِ الصُّراعِ ، قامت « الغافية » تتمطى ،

وتطرد الفتور عن أعضائها ومفاصلها ، وتمسح النعاس اللذيد عن وجهها ، غافلة لا يفارقها شعورها القديم بالأمن والاطمئنان = أما « اليقظة » فهبت حذرة ، تراقب ، وتحسس ، وتطوف ، وتاهب للسطو على هذه « الغافية » ، باغية لا يفارقها شعورها الجديد اللذيد بالقوة والبطش والضراوة ، وبحب الغلبة وبسط السلطان . وبدأ الصراع جسا بأطراف الأستة ، ودسا بأسباب التجارة ، وشيئا فشيئا ، جاءت « الجيوش » واستفحلت « التجارة » ، وجاء معهما أو سبقهما طوائف « المبشرين » . لم يكونوا طائفة من الدعاة إلى الديانة فحسب ، بل كانوا طوائف لكل منها صفة ووشم تمشي به في الناس ، تأخذهم من غفلاتهم قبل أن يفيقوا . وأطبقت على رقعة العالم العربي والعالم الإسلامي ضابطة كثيفة ، ووطئ عليها تاريخ طويل يسحق القوى وينسفها نشفا وكانت قصة طويلة متمادية ، تقطر دما وغدرا وخيانة ، وترشح مكرًا وخبثًا وخسة وفظاظة

* * *

فهذه الفصول التي كتبها ، ترفع اللثام عن شيء من هذه القصة التي تجرى أحداثها في أخطر ميدان من ميادين هذا الصراع ، وهو ميدان « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » جميعا . ويزيده خطرا : أن الذين تولوا كبر هذا الصراع ، والذين ورثوهم من خلفهم ، إنما هم رجال مئا ، من بنى جلدتنا ، من أنفسنا ، ينطقون بلساننا ، وينظرون بأعيننا ، ويسيرون بيننا آمنين ، بميثاق الأخوة في الأرض ، أو في الدين ، أو في اللغة ، أو في الجنس .

ويزيد الأمر بشاعة : أن الذين هم هدف للتدمير والتمزيق والنسف ، لا يكادون يتوهمون أن ميدان « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » هو أخطر ميادين هذه الحرب الخسيسة الدائرة على أرضنا من مشرق الشمس إلى مغربها = ولا أن معارك « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » متراحبة لا تحدد بحدود = ولا أن أكثرها يأتي موقتا توقيتا دقيقا : إنما قبيل حركات النهضة والإحياء ، وإما معها ، وإما في أعقابها = ولا أن الأمر صار أخطر مئا كان منذ سبعين سنة = ولا أن هذه « المعارك » ليست في حقيقتها « أدبية » أو « ثقافية » أو « فكرية » ، بل هي معارك « سياسية » ، تتخذ

« الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » سلاحًا ناسفًا لقوى متجمعة ، أو لقوى هي في طريقها إلى التجمع = ولا أن أمضى سلاح في يد عدونا هو « سلاح الكلمة » الذى يحمله رجال من أنفسنا ، ينبئون فى كُلّ ناحية ، ويعملون فى كُلّ ميدان ، وينفثون سُموهم بكلّ سبيل = ولا أن بعض هؤلاء الرجال يأتون ما يأتون عن علم ، وبعضهم قد أخذ من غفلته ، فهو ماضٍ فى طريقه على غير بينة .

وقد اتفق اتفاقاً أن يكون أكثر ما طُوِّت عليه هذه الفصول ، كشفًا عن حقيقة إنسان من أهل زماننا ، ممّن يأتى ما يأتى عن علم وعلى بينة ، وقد مهّدت له الطريق قوى من وراء ستار ، ظلّت تحوطه وترعاه ، حتى انتهى إلى أن تصدّر فجأة ، وأصبح قادرًا على أداء مهمته فى هذه الحرب الدائرة ، آمنًا من كُلّ ريب ، مُعًا على تحقيق أهداف عدونا فى أوسع صحفنا انتشارًا وأعظمها أثرًا ، وبين أعظم قوّانا العاملة الواعدة ، وهى شباب هذه الأمة ، فُخِدِعَ به من خُدِع . وقد اتَّخذ « شيخ المعرفة » ، فى بعض ما يكتب ، وسيلة لبث أفكار كثيرة تحت عجاج من التعالم والتنفخ بالمنهج وغير المنهج ، فأعانى ما كتبه على الكشف عن حقيقة الصراع الدائر بين حضارتنا وحضارة عدونا ، وأعانى أيضًا على الكشف عن جهله بهذه العربية التى يكتب الآن بها ، وقد كان لها كارها ، وعلى حربها حريصًا فيما سلف من أيامه . ثم أعانى مرة أخرى على الكشف عن كُلّ ما يتنبّل به من معرفة بالإنجليزية واليونانية ، فأثبت بالبرهان أنه فاقد للحسّ الأدبى ، فى ترجمة « الضفادع » لأرسطوفان ، ^(١) وأنه يدلّس على الناس ، على مذهب جماعة « الميشّرين » الذين حاطوه ورعّوه من وراء ستار حتى بلغ ما بلغ ، مستعينين على ذلك بغفلتنا عن حقيقة الصراع فى ميادين « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » .

ونعم ، إن هذه الفصول ، قد تخلّلها كشف عن جماعة آخرين ممن اتخذوا « الصحافة » أو « التأليف » فى زماننا ، ستارًا لبث ما يريد عدونا فى ميدان « الثقافة » و « الأدب » و « الفكر » ، ولكنى كنت قد عقّدت النية على أن أتابع السّير ، بعد أن

(١) انظر الفصل رقم : ٢٥ من هذه الفصول ص : ٤٤٥ - ٤٦٦ .

أَفْرَغَ من هذا الدعوى ، فأكشف الستارَ عن رجالٍ كان لَهُم أثرٌ فى تحطيم قُوى الأمة العربية الإسلامية ونَشْفِها ، ومنزلة كُلِّ منهم فى إحدى الفئتين : فئة مَنْ يَأْتى مَا يَأْتى عن علم ، وفئة مَنْ أُخِذَ من غَفْلته ومُضَى فى الطريق على غير يَبِينَةٍ ، ولكن حلَّ بى ما فَسَّخَ هذه النِّيَّةَ ، وأنا غيرُ مرِيدٍ لَفَسْخِها . ولكن هكذا كان ، والله الأمرُ مِنْ قَبْلُ ومن بعدُ !

وعَسَى أَنْ يَأْذَنَ الله فيما بقى من العُمُر ، أن أتابع كتابة تلك الفصول التى فَسَّخَ القَهْرُ نَيْبِي فى كتابتها ، فَإِنَّ الأمرَ لَنْ يَسْتَقِيمَ لَنَا ، حتى نُعيد دراسة الفئتين جميعًا ، والكشف عن حقيقة آرائهم : كيف كانت ؟ ولمَ جاءت ؟ ومتى أذيعت ؟ وإلى أى مكانٍ تنتمى ؟ ولن تُغْنِي هذه الدراسة قليلًا ، إذا غَوَّنا عن مواطن أقدامنا ، ما يذكُرُونَ به فى الناس من تمجيد وثناء ، أو ما نالُوا فى حياتهم من توقير وتعظيم ، أو ما بلغوا فينا من منزلة القيادة الفكرية والثقافية ، فَإِنَّ أكثرَ ذلك كله تدليسٌ دَلَّسْتُهُ على جماهيرنا غَفْلَتُها حينًا ، وجَهْلُها حينًا آخر . ونَسْأَلُ الله أَنْ لا نَضِيعَ بين الغفلة والجهل ، وأن يَسَدِّدَ خُطَانَا وَخُطَى أَمْتِنَا إلى غاية مرموقة ، يعينُ على بلوغها ثَرَاتٌ من الثقافة والأدب والفكر ، لو كان لعدوِّنا مثْلُهُ ، لَمَّا لَجَأَ إلى أَبْشَعِ وَسَائِلِ التدمير والتَّسْفِ ، حتى يترَكْنَا أُمَّةً عاجزةً جاهلةً تخزُّ على آثار قدميه خاضعة ، تصف نفسها بألفاظٍ كثيرة تُدَارِ على أَسْمَاعِ صِغارنا وكبارنا بالليل والنهار ، كالتخلف ، والتعصُّب ، والرجعيَّة .

اللَّهُمَّ أَهْدِنَا فيمَنْ هَدَيْتَ ، وتولَّنا فيمَنْ توليت ، وقِنَا شرَّ ما قضيت ، إِنَّكَ تَقْضِي ولا يُقْضَى عليك ، لا يَذِلُّ من والَيْتَ ، ولا يَعِزُّ مَنْ عادَيْتَ ، سُبْحَانَكَ لا شريكَ لك فى مُلْكِكَ .

محمود محمد شاكر

مصر الجديدة

شارع الشيخ حسين المرصفي رقم ٣

١٧ من ذى القعدة سنة ١٣٩١

٤ يناير سنة ١٩٧٢